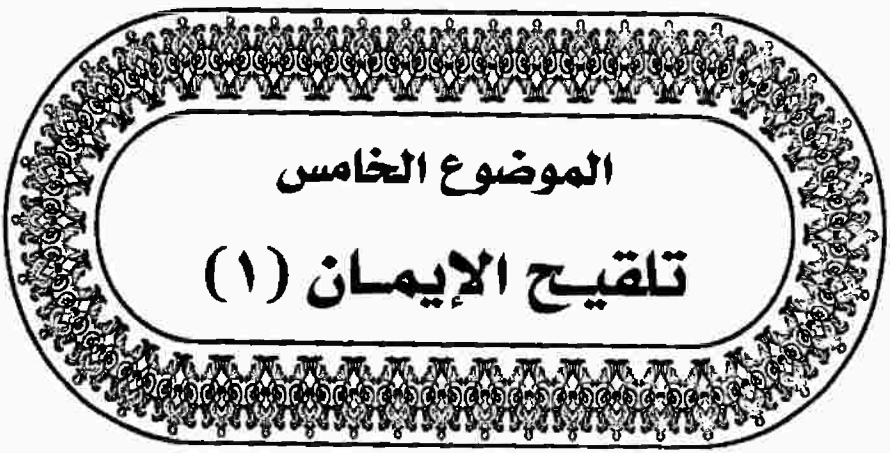
الموضوع الخامس
تلقيح الإيمان (١)

الموضوع الخامس

تلقيح الإيمان (١)

رسول الله ﷺ هو الذي صنع أمة أمثال عمر ﷺ، كان عمر ﷺ مشركًا، وكان سيموت مشركًا وعلى أخلاق الجاهلية، لولا أن رسول الله ﷺ أخرجه من الجاهلية، ولكن انظروا الآن كيف مات عمر ﷺ، وفي أي منزلة كان عمر ﷺ، وحتى في أي مكان دُفن عمر ﷺ، كل هذه الأمور لم تأتِ إلا بتلقيح الإيمان من رسول الله ﷺ.

عندما دخل عمر ﷺ على سيدنا رسول الله ﷺ، وطرق الباب على دار الأرقم ابن أبي الأرقم ﷺ خاف الناس، وفزعوا من عمر ﷺ، فأقبل عليه النبي ﷺ ولقحه تلقيحًا إيمانيًّا، فأمسك الحبيب ﷺ به، وقال له: «أما آن لك أن تؤمن يا عمر»[١]. فآمن عمر في الحال.

وكذلك عبد الله بن مسعود ﷺ رجل نحيل، كان يرعى الغنم، وكان يتمنى من سيده أن يعتقه من العبودية، وهذا الذي كان يتمناه، فحياته كلها كانت تقوم على خدمة أسياده من الأغنياء، فانظروا ماذا فعل به الإسلام، صار أبلغ الناس بالقرآن، وأصبح أكثر الناس تأثيرًا وتأثرًا بالقرآن الكريم، وأصبح المذهب الحنفي كله يؤخذ من عبد الله بن مسعود، فماذا كان شأنه إذا لم يُبعَث رسول الله ﷺ؟ لذلك فإن الإيمان يُبعث من جديد، «وعلى رأس كل مئة سنة يرسل الله تعالى من يجدد للأمة أمر دينها»[٢].

---

(١) انظر: الرحيق المختوم ص ٨١، لصفي الرحمن المباركفوري.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة ﷺ، رقم ٣٧٤٠.

فنحن نبين هنا الصفوة، وصفة الصفوة، ومن هم الصفوة؟ وكيف جعلهم الله تعالى صفوة؟ إنهم كانوا صفوة لتلقيح الإيمان؛ لأن الله تعالى كان يريد لهذا الدين أن يُجدد؛ لذلك يرسل الله تعالى على رأس كل مئة سنة من يجدد أمر الإيمان.

كان الإمام عمر بن عبد العزيز هو أول مَن بعثه الله تعالى لكي يبعث هذا الدين من جديد، ثم أتى بعده الإمام الشافعي على رأس المئة الثانية، هكذا ذكر العلماء الذين بعثهم الله تعالى، أي: يريد الله سبحانه وتعالى أن يجدد الإيمان في قلوب الناس، فيأتي العلماء والفقهاء وأهل الخير كي يوقظوا الإيمان في نفوس الناس، هذا مفهوم تلقيح الإيمان، فالناس على حالتين:

الحالة الأولى: الذين يستجيبون لله تعالى والرسول ﷺ.

الحالة الأخرى: الذين لا يستجيبون لله تعالى ولا للرسول ﷺ.

حبيب النجار هو صاحب يس الذي ذكره الله تعالى في سورة «يس»: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠]. وهو سوف يسعى إلى الله تعالى، وسوف يسعى لتبليغ رسالات الله سبحانه، وكيف لا يخشى أحدًا غير الله تعالى؟ إنه يريد لهذه البيئة وهذا الجو أن يكون جوًّا إيمانيًّا، ولهذا الزمان الذي نعيش فيه أن يكون إيمانيًّا.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠]. وجاء من مكان بعيد في المدينة رجل مسرع، وذلك حين علم أن أهل القرية هَمُّوا بقتل الرسل أو تعذيبهم، قال: يا قوم اتبعوا المرسلين إليكم من الله.. حريص على تبليغ رسالات الله.

كل شخص منا في حاجة إلى آخر يذكِّره بالإيمان، ورسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم، ولا يعظون إخوانهم، وما بال جيران لا يتعلمون من

جيرانهم»[1]. فالإنسان مطالب ومكلَّف أن يبلغ رسالة الله تعالى، وأن يبلغ أي علم أو نور أعطاه الله إياه.

فهذا الرجل حريص ـ وهو حبيب النجار ـ أن يدعو إلى الله تعالى بكل قلبه وبكل أحاسيسه، يقول: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥]. اسمعوني إني سأتكلم فأعطوني قلوبكم وأسماعكم. أي: إني آمنت بربكم فاستمعوا إلى ما قُلْته لكم، وأطيعوني بالإيمان، وأعطوني آذانكم، ولكنهم لا يستمعون إليه، وغدروا به وقتلوه، فقد قتلوه وهم يعلمون أن قلبه المؤمن الجياش الذي يحبّ الخير يتمنى لهم الهداية، وبعد أن مات، ودخل القبر، وانتقل إلى عالم البرزخ يجد خيرات وعطاء عظيمًا من الله ﷻ.

انظروا إلى هذا الرجل ليس أنانيًا ولا بطَّالاً، ولكنه ناصح وأمين في تبليغ رسالات الله تعالى، فيدخل الجنة كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٢٦]. أي: قيل له بعد قتله: ادخل الجنة، إكرامًا لك، فهذا عملك الذي قدمته لله تعالى، قال وهو في النعيم والكرامة: يا ليت قومي يعلمون بغفران ربي لي وإكرامه إياي؛ بسبب إيماني بالله وصبري على طاعته، واتباع رسله حتى قُتِلت، فيؤمنوا بالله فيدخلوا الجنة مثلي.

إن الله سبحانه وتعالى أكرمه وثبته؛ لأنه استطاع أن يتحمل، وأن يبلغ رسالة ربه سبحانه وتعالى، هكذا علمنا الله رب العالمين أن نستمع لكل مَن يذكرنا بالله تعالى، فعندما نقول لأحد: صلِّ، أو تُب، فيجب عليه أن يقول: بارك الله فيك، سوف أصلي وسوف أتوب، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

---

(١) ذكره أبو نعيم الأصفهاني في معرفة الصحابة، بلفظ: عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده، قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعظونهم ولا يعلمونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم».

أي: يا ربنا، إننا سمعنا مناديًا ـ هو نبيك محمد ﷺ ـ ينادي الناس للتصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، والعمل بشرعك، فأجبنا دعوته وصدَّقنا رسالته، فاغفر لنا ذنوبنا، واستر عيوبنا، وألحقنا بالصالحين.

هذه حالة المسلم عندما يلقح تلقيحًا إيمانيًّا، ويستجيب لله، فكل منا معه جواهر ودُرَر، ابحثوا في جيوبكم لن تجدوا شيئًا، فكل واحد منا معه جواهر، ولا يليق بعاقل أن يلقي بهذه الجواهر على قارعة الطريق، فما هذه الجواهر؟ هذه الجواهر هي الأنفاس. فهذا النَّفَس جوهرة، هذه الحياة أنفاس، وعندما ينتهي آخر نفس لك تنتهي حياتك فلكل أجل كتاب، فالنفس جوهرة؛ لأنه يساعدني على طاعة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤].

أي: فلا تستعجل أيها الرسول بطلب العذاب على هؤلاء الكافرين، إنما نحصي أعمارهم وأعمالهم إحصاءً لا تفريط فيه ولا تأخير.. أي: نعد أنفاسهم، فكل نَفَس ـ أي شهيق وزفير ـ لا يفيدني في طاعة الله ﷻ أو أستخدمه في طاعة الله ﷻ فإنني أندم عليه يوم القيامة، فإذا تخلفت عن ركب الإيمان، وعن الصلاة والطاعة فقد عصيت رسول الله ﷺ.

وسنتناول الآن نماذج لعبادات يزداد بها الإيمان، ويتقوى بها المسلم، وتغسل بها الأوزار، ومن ذلك ما يلي:

فالوضوء مثلاً يغسل ذنوب الإنسان، أي أنه يُلقح، فعندما يتوضأ الإنسان فإن ذنوبه تتناثر، فإذا ما صلى الإنسان فإن صلاته رفعة لدرجاته، فإذا ما سلمت على أهل بيتك فإنك تلقح البيت كله بالخير، إذا سلمت على أهل بيتك يكثر خيرك وخير أهل بيتك.

ومجالس العلم أيضًا تلقيح للنور؛ لأنها ترفع الذين يعلمون، والذين يتعلمون، وترفع العالم والمتعلم كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، إذا طُلب منكم أن يوسع بعضكم لبعض في المجالس فأوسعوا، يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة، وإذا طلب منكم أيها المؤمنون أن تقوموا من مجالسكم لأمر من الأمور التي يكون فيها خير لكم فقوموا، يرفع الله مكانة المؤمنين المخلصين منكم، ويرفع مكانة أهل العلم درجات كثيرة في الثواب، ومراتب الرضوان، والله تعالى خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها.. وفي الآية تنويه بمكانة العلماء وفضلهم، ورفع درجاتهم.

فلا ينبغي أن تكون يوم القيامة مع الذين يقولون: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. أي: يقول: يا ليتني قدَّمتُ في الدنيا من الأعمال ما ينفعني لحياتي في الآخرة.. فقدِّم الآن، وقدموا لأنفسكم، فما من أحد يموت إلا وتمنى أن يرجع للدنيا، لو كان صالحًا يتمنى أن يعود ليزيد في التجارة الرابحة مع الله سبحانه وتعالى؛ لأنه وجد ما وعده ربه حقًّا، وإن كان دون ذلك قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

أي: لعلي أستدرك ما ضيَّعْت من الإيمان والطاعة.. ليس له ذلك، فلا يجاب إلى ما طلب ولا يُمْهَل.. فإنما هي كلمة هو قائلها، قول لا ينفعه، وهو فيه غير صادق، فلو رُدَّ إلى الدنيا لعاد إلى ما نُهي عنه، وسيبقى الأموات في الحاجز والبَرْزخ الذي بين الدنيا والآخرة إلى يوم البعث والنشور.

فما الذي دعاهم إلى هذا الإعراض؟ وما الذي جعلهم يقفون موقف المعارضة من أنبياء الله؟ ولماذا دخلوا في دائرة المغضوب عليهم من الله رب العالمين؟ هذا ما سنوضحه فيما يلي:

نماذج لإعراض الكفار في القرآن الكريم:

تحدث الله تعالى عن الكفار في سورة هود، فكان الكفار يذهبون ليستمعوا للقرآن من سيدنا محمد ﷺ، ولكنهم يختبئون بجوار الأسوار والحوائط بحيث لا يراهم أحد،

كانوا يريدون أن يستمعوا إلى القرآن الكريم من فم رسول الله ﷺ، ولكنهم في الوقت نفسه لم يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

أي: إن هؤلاء المشركين يضمِرُون في صدورهم الكفر؛ ظنًّا منهم أنه يخفى على الله ما تضمره نفوسهم، ألا يعلمون حين يغطُّون أجسادهم بثيابهم أن الله لا يخفى عليه سِرُّهم وعلانيتهم؟ إنه عليم بكل ما تُكِنُّه صدورهم من النيات والضمائر والسرائر.

على سبيل المثال: أحدهم يستشعر أنه يعيش في حرام، فأكله من حرام، ورزقه من حرام، ويريد أن يتوب من هذا الحرام، وأن يذوق حلاوة الإيمان لكنه خائف على منصبه وسمعته، وخائف على سمعة أولاده.

إمراض قوم سيدنا نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٧].

أي: قال نوح: رب إني دعوت قومي إلى الإيمان بك وطاعتك في الليل والنهار، فلم يزدهم دعائي إياهم إلى الإيمان إلا هربًا وإعراضًا عنه، وإني كلما دعوتهم إلى الإيمان بك؛ ليكون سببًا في غفرانك ذنوبهم، وضعوا أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يسمعوا دعوة الحق، وتغطَّوا بثيابهم؛ كي لا يروني، وأقاموا على كفرهم، واستكبروا عن قَبول الإيمان استكبارًا شديدًا، ولم يقل: إني تعبت، ولم يقل: إنهم قوم لا يريدون أن يسمعوا كلام الله، ولا يريدون لهذا النور أن يأتي إلى قلوبهم.

أحدهم يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم، والقنوات الدينية، وآخر يشغل قناة أغانٍ أو كذا أو كذا، بحيث إنه يصرف الناس عن ذكر الله عز وجل، فهذا الكافر يقول كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:

٢٦]. أي: وقال الكافرون بعضهم لبعض متواصين فيما بينهم: لا تسمعوا لهذا القرآن ولا تطيعوه، ولا تنقادوا لأوامره، وارفعوا أصواتكم بالصياح والصفير، والتخليط على محمد إذا قرأ القرآن؛ لعلكم تغلبونه، فيترك القراءة، ونتصر عليه.. تغلبون مَن؟ إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا.

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧]. «جعلوا أصابعهم» إشارة إلى كونهم لا يسمعون بآذانهم، فجميع الحواس معطلة، كما في قوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أي: ولقد خلقنا للنار التي يعذِّب الله فيها مَن يستحق العذاب في الآخرة كثيرًا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يعقلون بها، فلا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات كتاب الله فيتفكروا فيها، هؤلاء كالبهائم التي لا تَفْقَهُ ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل بقلوبها الخير والشر فتميز بينهما، بل هم أضل منها؛ لأن البهائم تبصر منافعها ومضارها وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك، أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فتوجد حالة تعطيل تام، كما يفعل المنافقون هذه الأيام، يريدون إحداث حالة من عدم إرساخ الإيمان، ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم، فسيدنا نوح يحاول معهم، نحن عندنا ضعف في همتنا، ولكن هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله لا يخشون أحدًا إلا الله سبحانه وتعالى، فانظروا إلى التعميم كي يبلغ الرسالة: فإني كلما دعوتهم، فهو حريص على أن يلقح عندهم الإيمان، وأن يبلغ رسالات الله سبحانه وتعالى، لكنهم صنف غافل لا يريد أن يهتدي، هل تعيب سيدنا نوح؟ لا.

إني دعوتهم جهارًا، أي: بالليل، والنهار وفي جميع الأوقات، وهم يغلقون الآذان والأعين والقلوب، وفي كل مكان وبأعلى صوت: استجيبوا لله وللرسول، وقوموا من هذه الغفلة، وأعلنت وبلغت، فماذا أفعل يا الله؟ سيدنا نوح حريص كل الحرص على تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى.

فهل بلغنا رسالة الله؟ وهل استطعنا أن نبلغ الإيمان لكي نلقح الإيمان، ونعلم الناس، ونعلم غيرنا؟ لا بد أن نعلم الناس أن الحياة أنفاس وجواهر، ويجب أن نحافظ على هذه الجواهر، فلا تنفق هذه الأنفاس والجواهر إلا في طاعة الله عز وجل.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. أي: واذكر أيها الرسول حين بعثنا إليك طائفة من الجن يستمعون منك القرآن، فلما حضروا ورسول الله ﷺ يقرأ، قال بعضهم لبعض: أنصتوا؛ لنستمع القرآن، فلما فرغ الرسول من تلاوة القرآن، وقد وعَوه وأثَّر فيهم، رجعوا إلى قومهم منذرين ومحذرين لهم بأس الله، إن لم يؤمنوا به.

أتى الجن كي تستمع رسول الله ﷺ، وفي هذه المدة كان رسول الله ﷺ يبلغ الناس في مكة وما حولها، ويؤذونه، فأراد الله تعالى أن يفتح له نافذة أخرى، وبابًا واسعًا للتبليغ، فأرسل إليه الجن، فذهب فجلس مع الجن، وإذ صرفنا لك، أي: قيدنا لك نفرًا من الجن يستمعون القرآن. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

«ولَّوْا» عادوا إلى قومهم منذرين، «قالوا: يا قومنا»، وبدأ الجن يتكلمون بلسان رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى، مصدقًا لما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله، يهدي إلى الحق والصواب، وإلى طريق صحيح مستقيم.

وعندما ننتقل من سورة الأحقاف إلى سورة الجن نجد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه كاد الجن يكونون عليه جماعات متراكمة، بعضها فوق بعض؛ مِن شدة ازدحامهم لسماع القرآن منه.

فكل واحد من الجن يريد أن يقترب من رسول الله ﷺ وجهًا لوجه، فالجن كلهم يجلسون بعضهم فوق بعض؛ لكي يجلسوا في الصف الأول أمام النبي ﷺ ولا يبتعدوا عن نور رسول الله ﷺ، فماذا أعددت أنت في محبة رسول الله ﷺ؟

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، اللَّهُمَّ عَافِنَا وَاعْفُ عَنَّا، اللَّهُمَّ عَامِلْنَا بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَلَا تُعَامِلْنَا بِمَا نَحْنُ أَهْلُهُ، يَا أَهْلَ العَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْنَا، وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ نَعْمَلْ.

اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَنَا وَوَلَدَنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِيمَا أَعْطَيْتَنَا، وَأَطِلْ حَيَاتَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، وَأَحْسِنْ عَمَلَنَا، وَاغْفِرْ لَنَا، اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا ، وَانْصُرْنَا وَلَا تَنْصُرْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلَا تَمْكُرْ عَلَيْنَا، رَبَّنَا أَعِنَّا وَلَا تُعِنْ عَلَيْنَا، وَاهْدِنَا وَيَسِّرِ الهُدَى إِلَيْنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ تَوْبَتَنَا، وَاغْسِلْ حَوْبَتَنَا، وَأَجِبْ دَعْوَتَنَا، وَثَبِّتْ حُجَّتَنَا، وَاهْدِ قُلُوبَنَا، وَسَدِّدْ أَلْسِنَتَنَا ، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قُلُوبِنَا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تلقيح الإيمان (٢)

يتذوق الإنسان حلاوة الإيمان في كل عبادة يؤديها، فالاستماع إلى القرآن الكريم فيه حلاوة وهمة، وكذلك الدعاء إذا كانت هناك همة فهناك حلاوة، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أي: والمؤمنون الذين جاهدوا أعداء الله، والنفس، والشيطان، وصبروا على الفتن والأذى في سبيل الله، سيهديهم الله سبل الخير، ويثبتهم على الصراط المستقيم، ومَن هذه صفته فهو محسن إلى نفسه وإلى غيره.. وإن الله سبحانه وتعالى لمع مَن أحسن مِن خَلْقِه بالنصرة، والتأييد، والحفظ، والهداية.

انظروا إلى سيدنا موسى لكي يتذوق حلاوة الإيمان، فعندما توجه إلى مدين قال كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ٢٢]. أي: ولما قصد موسى بلاد مدين، وخرج من سلطان فرعون قال: عسى ربي أن يرشدني خير طريق إلى مدين.

هذا دعاء مَن يحتاج عونًا، وسندًا، ونصرًا، وتأييدًا؛ فسيدنا موسى دعا به، فحياتنا كلها أستشعر أنها مع الله تعالى، فكل التوفيق والنصر والهداية من الله.

ذو القرنين بلغ ما بلغ من المجد، هذا الملك الصالح قال كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨]. أي: قال ذو القرنين: هذا الذي بنيته حاجزًا من فساد يأجوج ومأجوج رحمة من ربي بالناس، فإذا

جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج جعله دكًّا منهدمًا مستويًا بالأرض، وكان وعد ربي حقًّا.

وسيدنا موسى عليه السلام قال أيضًا: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾[القصص: ٢٣].

أي: ولما وصل ماء مدين وجد عليه جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دون تلك الجماعة امرأتين منفردتين عن الناس، تحبسان غنمهما عن الماء؛ لعجزهما وضعفهما عن مزاحمة الرجال، وتنتظران حتى تَصْدُر عنه مواشي الناس، ثم تسقيان ماشيتهما، فلما رآهما موسى عليه السلام رقَّ لهما، ثم قال: ما شأنكما؟ قالتا: لا نستطيع مزاحمة الرجال، ولا نسقي حتى يسقي الناس، وأبونا شيخ كبير، لا يستطيع أن يسقي ماشيته؛ لضعفه وكبره.

فليس لها قدرة على الوصول إلى نبع الماء؛ لكي يسقيا بسبب الزحام الشديد، فانظروا إلى أدب وعطاء سيدنا موسى عليه السلام لم يقل: لن أفعل شيئًا، تموتان وتموت أنعامهما من العطش! فما هذا النور والعطاء الذي أعطاه الله تعالى لأحبابه؟ سيدنا موسى عليه السلام لم يترك الموقف هكذا، وإنما تفاعل، فالإسلام عبارة عن تفاعل ومشاركة وعطاء، ماذا أعطيت للآخرين؟ وبماذا نفعت الناس؟ وكيف ينتفع الناس بك؟

قال: ما خطبكما؟ ولماذا أنتما جالستان بعيدًا؟ قالتا: لا نسقي حتى يسقي الناس، وأبونا شيخ كبير ليس عندنا قدرة على الزحام، فسقا لهما.

لاحظوا أن سيدنا موسى ظل يمشي ثمانية أيام، وكان يأكل من عطاء الأرض، أي: الخضروات والحشيش والأعشاب، وهو على هذه الحالة ثمانية أيام ماشيًا، وجد مشكلة أمامه فلم يترك المشكلة، هذا هو الإيمان، وإنما تفاعل مع المشكلة، فهذه مروءة

المسلم، فقال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

أي: فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما، ثم تولى إلى ظل شجرة فاستظلَّ بها وقال: رب إني مفتقر إلى ما تسوقه إلى مِن أي خير كان، كالطعام، وكان قد اشتد به الجوع.

وانظروا إلى استئناسه بالله ﷻ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

فالذين يكتبون الكلام بالذهب والفضة لن يجدوا أجمل من هذه الجملة، فيقول: رب، وأنا جوعان وعطشان، وأنا على هذه الحالة فإني فقير إليك ولعونك، وإني واثق في عطائك، وواثق أنك تفرج همي، وتكشف كربتي، وتقل عسرتي، وتروي ظمئي، إنه يستغيث بالمولى سبحانه: إني لما أنزلت إليّ من خيرٍ.. من طعام، ورزق، وماء، ومال... إني لما أنزلت إليّ مِن خير فقير، هكذا يظل المسلم فقيرًا إلى رحمة الله، راجيًا رحمة الله تبارك وتعالى.

وسيدنا محمد ﷺ قال: «ألا أخبركم عن الأجود والأجود؟» فقالوا: بلى يا رسول الله. فقال ﷺ: «الله تعالى هو الأجود سبحانه، وأنا أجود ولد آدم ﷺ، وأجودكم من بعدي رجل عَلم (بفتح العين) عِلمًا (بكسر العين) فنشر هذا العلم، فيبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه لله ﷻ»[1]. أي: قتل شهيدًا أثناء المعركة.

فأجود الناس على أهل الأرض هم الذين يجودون بعلمهم، ويجودون بأرواحهم لنصرة الحبيب ﷺ، أي: الإنسان عندما يعلم علمًا، أو يتعلم علمًا فإنه في حالة عبادة، وأحاديث الترغيب والترهيب فيها باب جميل، وهو باب: طلب العلم، وفيه ذكر

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم ٢٧٩٠، عن أنس ﷺ، بلفظ: «ألا أخبركم عن الأجود الأجود؟ الله الأجود الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل علم علمًا فنشر علمه يبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى يقتل».. قال حسين سليم أسد: إسناده مسلسل بالضعفاء.

أحاديث كثيرة تعلمنا منها أنه من طلب علمًا أو تعلم علمًا ـ في مجموع الأحاديث إجمالاً ـ كتب الله ﷻ له أجر عمرة أو حج.

فلا بد وأن نعلم أن الإيمان يحتاج إلى تلقيح وإلى زيادة، وأن الإنسان إذا ظن أنه عَلِم (بفتح العين وكسر اللام) فقد جَهِلَ (بفتح الجيم وكسر الهاء)، وهذه مصيبة كبيرة، ونتعلم أن رسول الله ﷺ بعد أن علمنا أن الذي يعلم الناس فهو أجود من على الأرض، ويبعث يوم القيامة أمة وحده، أي: له كرامة خاصة وله عطاء خاص، ويستشفع الناس بالعالم عند الله ﷻ إذا كان عالمًا عابدًا وعاملاً، قال ﷺ: «من أتى المسجد، وتعلم آية واحدة أو آيتين كتب الله له بكل آية أجر ناقة». وفي حديث آخر: «كتب له أجر ناقتين عظيمتين»[1].

أي: عندما أحفظ كل يوم آية كأنني أتصدق بثمن ناقة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

أي: مَن ذا الذي ينفق في سبيل الله محتسبًا من قلبه بلا مَنٍّ ولا أذى، فيضاعف له ربه الأجر والثواب، وله جزاء كريم، وهو الجنة؟ وكذلك يوفيهم الأجر، ويزيدهم من فضل الله جل في عُلاه، كما في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠]. أي: ليوفيهم الله تعالى ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص، ويضاعف لهم الحسنات من فضله، إن الله غفور لسيئاتهم، شكور لحسناتهم، يثيبهم عليها الجزيل من الثواب.

لكي نتعلم منها أن التجارة الرابحة هي المقصودة هنا، وأن الآية الواحدة إذا حفظها الإنسان كأنما تصدق بأجر ناقة، وهذا الكلام لا ينكره أحد، فالكل يرجو رحمة الله ورضوانه من باب متابعة النبي الكريم ﷺ.

---

(١) روى مسلم في صحيحه رقم ١٩٠٩: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ».

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث! فقال الناس: سبحان الله! بقرة تتكلم. فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»(١).

فانظر إلى يقين سيدنا النبي ﷺ، وحسن ظنه بالله سبحانه وتعالى، وانظر إلى تلقيح الإيمان، وانظر إلى رسول الله ﷺ كأنه ينظر في قلوب أصحابه، ويتكلم بلسان أصحابه وبلغتهم.

فالحبيب ﷺ يؤمن أن البقرة تكلمت؛ لأن الذي أنطقها هو الله عز وجل؛ وأن الذي علمنا هو الله سبحانه وتعالى، والصديق يؤمن بهذا؛ لأن يقينه على يقين قلب النبي ﷺ، ولأن ثباته على ثبات قلب النبي ﷺ، ولأن نوره مأخوذ من نور النبي ﷺ.

والفاروق مثل الصديق، والفاروق لم يتكلم، ولكن الحبيب ﷺ تحدث بلسان هذا وبلسان هذا، أي: العلم بالله سبحانه وتعالى هو الذي يؤدي إلى تلقيح الإيمان.

قال الصحابة للنبي ﷺ: نجلس مع من يا رسول الله؟ ومَن نصاحب؟ فقال ﷺ: «جلساؤكم مَن ذكركم بالله رؤيته»(٢). فأشاهد في وجهه نورًا فأقول: هذا يصلي الفجر، أو أرى في وجهه علامة صلاة فأقول: بسم الله ما شاء الله، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، كما في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٣٦٩٠، ومسلم رقم ٦٣٣٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظ المُنتخبُ من مُسْنَدِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، رقم ٦٣١، بلفظ: مَنْ ذَكَّرَكُمْ باللهِ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّر م بالآخِرَةِ عَمَلُهُ.

أي: محمد رسول الله ﷺ، والذين معه على دينه أشداء على الكفار، رحماء فيما بينهم، تراهم ركعًا سُجَّدًا لله في صلاتهم، يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة، ويرضى عنهم، علامة طاعتهم لله ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة، هذه صفتهم في التوراة، وصفتهم في الإنجيل كصفة زرع أخرج ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه بعد ذلك، وشدت الزرع، فقوي واستوى قائمًا على سيقانه جميلاً منظره، يعجب الزُّرَّاع؛ ليَغِيظ بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وجمال منظرهم الكفار.

وفي هذا دليل على كفر من أبغض الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن من أغاظه الله بالصحابة، فقد وجب في حقه موجِب ذاك، وهو الكفر.

وعد الله الذين آمنوا منهم بالله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، مغفرة لذنوبهم، وثوابًا جزيلاً لا ينقطع، وهو الجنة.. ووعد الله حق مصدَّق لا يُخْلَف، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم في استحقاق المغفرة، والأجر العظيم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم.

فالمسلم يجلس مع حامل المسك الذي تفوح منه رائحة الإيمان، وتفوح منه رائحة الجنة، ومع الشهداء، ونعايش معه الإيمان كله، ويجلس مع مَن يذكره بالآخرة عمله، فالذي يحمل المسك فإنه يعطر الجو، وعندما أدخل المكان أقول: ما هذه الرائحة الطيبة؟! إنها ليست فقط رائحة المسك، وإنما رائحة الملائكة التي تتنزل على هذه الأماكن.

وسيدنا صالح عليه السلام الذي أرسله الله تعالى لقوم ثمود ـ وما زالت آثارهم باقية تدل عليهم ـ عقروا الناقة التي تأتي لهم باللبن والخير والتي يتمتعون بعطائها، قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]. أي: فكذَّبوه ونحروا الناقة، فقال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم في بلدكم ثلاثة أيام، فإن العذاب نازل بكم بعدها، وذلك وَعْدٌ من الله غير مكذوب، لا بد من وقوعه.

مَن علمك يا صالح أنها أيام ثلاثة لا تزيد ولا تنقص؟ وهل أخلف الله سبحانه وتعالى الميعاد معك أو معهم؟ هذا لم يحدث، فجاء في آخر يوم نقمة عظيمة من الله عَزَّوَجَلَّ، لكن الشاهد في كلامنا هو حسن اليقين بالله رب العالمين الذي علَّمه ورباه وهداه، والذي ابتعثه لهذا النور، والجمال الذي نتحدث عنه الآن.

قال ابن كثير: كان لونهم في اليوم الأول أحمر أو أخضر، ثم صار لونهم في اليوم الثاني أزرق، ثم صارت بعد ذلك وجوههم مسودة، وعندما صاروا على هذه الحالة جاءهم وعد الله تعالى[1]. ففي آخر اليوم الثالث ما كاد أن ينتهي حتى جاء وعد الله الذي تحدث عنه سيدنا صالح عليه السلام.

موقف آخر عن تلقيح الإيمان:

رسول الله ﷺ وهو عائد من غزوة حنين بين مكة والطائف مر على قبر قريب من الطائف، فقال ﷺ: «هذا قبر أبي رغال». فقالوا: يا رسول الله، ومَن أبو رغال؟ فقال: «هذا رجل من قوم ثمود لما علم بوعد الله تعالى عليه فإنه اختفى في الحرم في هذه الأيام الثلاثة عندما علم بوعد الله تعالى»[2]. وأن نقمة الله تعالى واقعة عليهم، فاختبأ في الحرم؛ لأنه يعلم أن الله تعالى أمَّن من دخل الحرم، فمن دخله كان آمنًا كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أي: في هذا البيت دلالات ظاهرات أنه من بناء إبراهيم عليه السلام، وأن الله عظَّمه وشرَّفه، منها: مقام إبراهيم عليه السلام وهو الحَجَر الذي كان يقف عليه حين كان يرفع

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٤٢/ ٣، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي.

(٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو، رقم ٢٦٨٤، بلفظ: عن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ فَمَرَرْنَا بِقَبْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ فَدُفِنَ فِيهِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ». فَابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخْرَجُوا الْغُصْنَ.

القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، ومَن دخل هذا البيت أَمِنَ على نفسه فلا يناله أحد بسوء، وقد أوجب الله على المستطيع من الناس في أي مكان قَصْدَ هذا البيت لأداء مناسك الحج، ومَن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه وعن حجِّه وعمله، وعن سائر خَلْقه سبحانه وتعالى.

فبعد أن اختبأ وجاءهم العذاب خرج يسير ناحية الطائف، وبينما هو يسير مات على هذه الحالة التي هو عليها فدفن في هذا المكان، ودفن وفي يده ـ كما قال ابن كثير، وكما جاء في الرواية الصحيحة ـ غصن من ذهب. أي: رجل مدفون منذ خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف سنة أو عشرة آلاف سنة وفي يده غصن من ذهب، فمَن علمك يا رسول الله؟ وأين كنت عندما مات أبو رغال؟ وما هذا اليقين؟!

فقال النبي ﷺ: «فلو شئتم فاحفروا له»[1]. فحفروا له فوجدوه ميتًا، وكأنه محنط وفي يده غصن من ذهب! فعندما نسمع هذا الكلام فكيف يكون إيماننا؟ لا بد وأن يزداد إيماننا، هذا معنى تلقيح الإيمان.

فعندما أصافح أخي فإن ذنوبي تسقط، وذنوبه تسقط، وعندما تنشأ خصومة بين أحد الناس بعضهم والبعض الآخر فيذهب كي يعتذر لأخيه، ويصافح أخاه، وتصافح الأخت أختها فإن ذنوبهم تتساقط، هذا تلقيح الإيمان وهذا هو الغسيل.

تلقيح الإيمان في سورة يوسف عليه السلام:

جاء في القرآن الكريم في قصة سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]. أي: ولما سألهم عن أبيه أخبروه بذهاب بصره من البكاء عليه، فقال لهم: عودوا إلى أبيكم ومعكم قميصي هذا فاطرحوه على وجه أبي يَعُدْ إليه بصره، ثم أحضروا إلى جميع أهلكم.

---

(١) السابق.

فمَن علمك أيها الصديق أنه بمجرد أن يوضع القميص على وجه أبيك يعقوب فإن بصره يرتد إليه، وترجع الحياة إلى عينيه مرة ثانية؟ الذي علمك هذا هو الله سبحانه وتعالى، فهذا هو حسن الظن واليقين في الله.

عندما يعلمنا الله أنه سينصر أمة سيدنا محمد ﷺ فإنه لا شك في هذا، فلا بد أن نثق في هذا، فلا تغسلوا القميص، لا بد أن تكون رائحتي رائحة الصلاة، وذكر الله والاستغفار، لا بد وأن تكون موجودة، ومجرد أنه أرسل القميص بدأ يستشعر، وبمجرد حركة الإبل من الأردن (بلاد كنعان) انتعش الإيمان عند سيدنا يعقوب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]. أي: فلما أن جاء من يُبشِّر يعقوب بأن يوسف حيٌّ، وطرح قميص يوسف على وجهه فعاد يعقوب مبصرًا، وعمَّه السرور فقال لمن عنده: ألـمْ أخبركم أني أعلم من الله ما لا تعلمون من فضله ورحمته وكرمه؟

والبشرى من الله سبحانه وتعالى للذين يهتدون للحق، ويتبعون أحسنه.. فارتد بصيرًا كما توقع سيدنا يوسف، وكما تمنى سيدنا يعقوب من الله، وهو يتكلم بكلام المؤمن الراسخ الإيمان في قلبه، قال: اتهمتموني بالكذب، وأن سني تقدم... فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٧ - ٩٨].

أي: قال بنوه: يا أبانا، سل لنا ربك أن يعفو عنا، ويستر علينا ذنوبنا، إنا كنا خاطئين فيما فعلناه بيوسف وشقيقه، قال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يغفر لكم ذنوبكم، إنه هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم.

قصة أنس بن مالك رضي الله عنه وتثبيت الإيمان:

تأتي أم أنس بولدها أنس وتقول له: يا رسول الله، هذا خويدمك أنس، فادع له. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أكثر ماله، وأكثر ولده، وأطل عمره، واغفر ذنبه»[1]..

(١) أخرجه أحمد في المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم ١٣٦١٩.

هل استجاب الله ﷻ للدعاء؟ نعم، المفاجأة الأولى: أن الله تعالى أكثر ماله، فكانت له حديقة تنتج مرتين، وكان الناس أول مرة يرون حديقة تنتج مرتين في السنة، وأكثر الله تعالى ولده فدفن بيده من أولاده وأحفاده أكثر من مئة واثنين، وأطال عمره فعاش أكثر من مئة وخمسين عامًا.

فدعا الحبيب له بأربع؛ فاستجاب الله تعالى للحبيب ﷺ، وهذا وعد الحق، وتوفيق الله، وعطاء الله، وهذا يقيننا في الله عز وجل.

إذن المسلم ينتفع من القصص القرآني التي ذكرها الله تعالى عن تلقيح الإيمان، وكذلك ما ورد عن النبي ﷺ مع خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، وكيف أن النبي ﷺ ثبت الإيمان بالله، وأعلى من درجة اليقين في الله تعالى عند الصحابة.

وننتقل الآن إلى العبودية والرجاء؛ ليعلم المسلم كيف يكون عبدًا لله تعالى كما أراد الله، متبعًا النبي الكريم ﷺ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَنَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لَنَا خَيْرًا.

اللَّهُمَّ احْفَظْنَا بِالإِسْلَامِ قَائِمِينَ، وَاحْفَظْنَا بِالإِسْلَامِ قَاعِدِينَ، وَاحْفَظْنَا بِالإِسْلَامِ رَاقِدِينَ، وَلَا تُشْمِتْ بِنَا الأَعْدَاءَ، وَلَا الحَاسِدِينَ، اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّاتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا مَنْ لَا يَخَافُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تلقيح الإيمان (٣)

(مع العبودية والرجاء)

عند ذكر سيرة الأبرار والأخيار في مكان، فإنه يتبدل ويتعطر بسيرتهم؛ لأنهم صالحون، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. أي: قل يا أيها الرسول: أوحى الله إلي أنَّ جماعة من الجن قد استمعوا لتلاوتي للقرآن، فلما سمعوه قالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآنًا بديعًا في بلاغته وفصاحته وحكمته وأحكامه وأخباره.

«وعجبًا» فيها دلالة على أن كلام الله سبحانه وتعالى لا مثيل له، وأن التلقي من سيدنا محمد هو سماع خاص، وتلقٍ خاص؛ لأن الذي يتلقى من سيدنا محمد ﷺ فإنه صار في معيته، والجن عندما أتوا رسول الله لم يتحملوا أن يجلسوا صفوفًا متراصة بعضهم خلف بعض، ولكن جلسوا بالمقاعد العالية، بعضهم يعلو بعضًا؛ لكي يشاهد الجميع وجه رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. أي: وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه، كاد الجن يكونون عليه جماعات متراكمة، بعضها فوق بعض؛ مِن شدة ازدحامهم لسماع القرآن منه.

فلم تكن عبدًا لله، ولم تكن معروفًا في الملأ الأعلى، ولا مسموعًا في الملأ الأعلى، ولا محاطًا بالعناية في الملأ الأعلى إلا بشيءٍ واحد: حسن العبودية وهو الدعاء، و«يدعوه» أي: يدعو الله ويدعو إلى الله عز وجل، فالإنسان منا إذا لم يدع الله وإذا لم يدع إلى الله فلا خير له في هذه الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

أي: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه. وفي الآية الكريمة حث على الدعوة إلى الله سبحانه، وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة، وَفْق ما جاء عن رسول الله محمد ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[1]. أي: استوعب الكلام وأحب الكلام فوعاه وبلغه، فمَن ذا يبلغ كلام رسول الله ﷺ إلا من أحب رسول الله ﷺ.

انظروا إلى الجن: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. فكلها كلمات يعتقد الإنسان أنه يسمعها لأول مرة، فالناس تعرف الرشاد ولا تعرف الرشد، كل هذه المعاني القرآنية نعيشها مع تلقيح الإيمان.

فإذا أردتم أن تعرفوا مكانكم عند الله، فليعرف أين المكانة التي هو عليها الآن؟ هل تشاهد قنوات دينية أم قنوات الأفلام؟ فإذا كنت تشاهد قنوات دينية فهذه منزلتك عند الله، وهذه مكانتك عند الله، فقد أراد الله تعالى أن يقيمكم على طاعته، وأراد تعالى أن يفتح مسامع قلبك لذكره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]. عندئذٍ فإنك تسمع ولكنك لا تسمع بأذنيك، فلا بد وأن تسمع بقلبك قبل أن تسمع بأذنيك؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

أي: وإذا قُرِئ القرآن فاستمعوا له أيها الناس وأنصتوا؛ لتعقلوه رجاء أن يرحمكم الله به.. فلا تسمع فقط، ولكن استمع باهتمام واستيعاب مع الاستشعار لكل حرف من القرآن الكريم وأنواره التي لا تنطفئ، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

---

(١) أورد هذا الحديث الحاكم في المستدرك قال: عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه.

أي: إذ يوحي ربك أيها النبي إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المسلمين في غزوة بدر: أني معكم أُعينكم وأنصركم، فقوُّوا عزائم الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد والذلة والصَّغَار، فاضربوا أيها المؤمنون رؤوس الكفار، واضْربوا منهم كل طرف ومِفْصل.

فتلقيح الإيمان، وعطاء الله للملائكة لا يتوقف، ولكن يمتد من الملائكة إلى المجاهدين والصادقين مع الله تعالى، فكأن الملائكة الآن تثبت كلامي في قلوبكم، فيرسخ هذا الكلام في هذه القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أي: إن في إهلاك القرون الماضية لعبرة لمن كان له قلب يعقل به، أو أصغى السمع وهو حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساهٍ.

ولكن هناك فرق بين قلب ينبض بالإيمان، وينام على ذكر الله، ويستيقظ على محبة الله، وإذا عصى الله بشيء بسيط فإنه حزين مهموم، كيف فعلت هذا؟! وأين كان قلبي من الله ﷻ عندما عصيت قيوم السماوات والأرض؟! أين كان بصري من الله عندما بارزت الجبار جل في علاه بالمعاصي؟! فهذا قلب ينبض بحب الله ﷻ، وقلب يعيش الإيمان كله، وقلب آخر في حالة غفلة، هذا القلب قال الله تعالى عنه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

أي: فأعْرِضْ عمَّن تولى عن ذكرنا، وعن القرآن، ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا... لا ينبغي أن تصادق إلا ذاكرًا وشاكرًا.

هذا كلام الله جل في عُلاه لسيدنا محمد ﷺ، وسيدنا محمد ﷺ يأتي سلمان الفارسي رضي الله عنه، فيجده يجلس مع صحبة طيبة يستغفرون الله، ويصلون على الحبيب ﷺ، فهذه المجالس التي يحبها الله ﷻ عندما يقيم الإنسان فيها فإن الملائكة تودعه، وتصعد إلى الله ﷻ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله. قَالَ: آلله مَا أَجْلَسَكُمْ

إِلاَّ ذَاكَ؟ قَالُوا: والله مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهَمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ»؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ «آلله مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ»؟ قَالُوا: وَالله مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهَمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ»[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أي: واصبر نفسك أيها النبي مع أصحابك مِن فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربهم وحده، ويدعونه في الصباح والمساء، يريدون بذلك وجهه، واجلس معهم وخالطهم، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار لإرادة التمتع بزينة الحياة الدنيا، ولا تُطِعْ من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، وآثَرَ هواه على طاعة مولاه، وصار أمره في جميع أعماله ضياعًا وهلاكًا.

ونستمر مع دعاة الحق الذين يثبت الله بهم الإيمان، ويدعم بهم أركان العقيدة، فها هو سيدنا نوح عليه السلام لم يمل، وظل على حالة متابعة إيمانية ربما يخرج الله من بينهم قومًا يذكرون الله عز وجل، ويسبحون الله عز وجل. فهل توقر الله سبحانه وتعالى وأنت تشاهد مشهدًا يبغضه، أو المصحف في منزلك وعليه غبار شديد ولا يفتح المصحف إلا في رمضان، وقد قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

أي: ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، كيف وقرت الله عز وجل في صلاتك؟ وجلست بعد الصلاة كيف تختمها لكي تستمتع بختم الصلاة؟ وتدعو الله عز وجل كي تذوق حلاوة الإيمان.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري.

وعندما نجلس في مجلس فننشغل عن ذكر الله تعالى، ونقوم من هذا المجلس هل تذكّرنا قول رسول الله ﷺ في كفارة المجلس؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عن كفارة المجلس: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَكُونُ فِي مَجْلِسٍ فَيَقُولُ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ»(١).

فمَن قاله في مجلسه يغفر الله تعالى له ما كان في مجلسه هذا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

أي: وإذا سمع هؤلاء القوم الباطل من القول لم يُصْغوا إليه، وقالوا: لنا أعمالنا لا نحيد عنها، ولكم أعمالكم، ووزرها عليكم، فنحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم، ولا تسمعون منَّا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم؛ لأننا لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبه، وهذا من خير ما يقوله الدعاة إلى الله.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

أي: لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك أيها النبي تحت الشجرة (وهذه هي بيعة الرضوان في الحديبية) فعلم الله ما في قلوب هؤلاء المؤمنين من الإيمان والصدق والوفاء، فأنزل الله الطمأنينة عليهم وثبَّت قلوبهم، وعوَّضهم عمَّا فاتهم بصلح الحديبية فتحًا قريبًا، وهو فتح خيبر، كم بايعنا الله تعالى، وكم بايعنا رسول الله ﷺ على أننا نحبه ونطيعه؛ لأننا إذا أحببناه، وأطعناه فقد كتب الله تعالى الإيمان في قلوبنا.

وفي آخر سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) أخرجه أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم ٨٤٦٢، وأخرجه الترمذي أيضا برقم ٣٣٥٥.

خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: لا تجد أيها الرسول قومًا يصدِّقون بالله واليوم الآخر، ويعملون بما شرع الله لهم، ويحبون، ويوالون مَن عادى الله ورسوله، وخالف أمرهما، ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو أقرباءهم، أولئك الموالون في الله، والمعادون فيه، ثَبَّتَ في قلوبهم الإيمان، وقوَّاهم بنصر منه، وتأييد منه لهم على عدوهم في الدنيا، ويدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها زمانًا ممتدًّا لا ينقطع، أحلَّ الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم، ورضوا عن ربهم بما أعطاهم من الكرامات ورفع الدرجات، أولئك حزب الله وأولياؤه، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

كيف كتب؟ والكاتب هنا هو الله سبحانه وتعالى، معنى كتب في القرآن الكريم: جمع، أي: كتب الشيء؛ لأن الكاتب يجمع حروفًا إلى حروف وكلمات إلى كلمات، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فالله تعالى جمع الإيمان والتصديق والطمأنينة في قلوبهم، كل هذه المعاني كتبها الله ﷻ في صدوركم.

إنهم يأخذون النور وتلقيح الإيمان والهداية كلها من سيدنا محمد ﷺ، وعندما تحب الطاعات التي كان يحبها رسول الله فقد أحببت رسول الله ﷺ، وعندما تحفظ القرآن وتختم القرآن فإنك من أشرف الناس على وجه الأرض، وقد أحببت رسول الله ﷺ؛ لأنه هو القائل: «أشراف أمتي حملة القرآن العظيم»[1]. أي: بعد أن أعطاهم الإيمان أعطاهم التأييد.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، رقم ١٢٤٩٤.

فالله تعالى هو الذي جمع الإيمان وكتبه في قلوبهم (في أمة سيدنا محمد ﷺ)، قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

أي: وجَمَع بين قلوبهم بعد التفرق، ولو أنفقت مال الدنيا على جمع قلوبهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ ولكن الله جمع بينها على الإيمان فأصبحوا إخوانًا متحابين، إنه عزيز في مُلْكه، حكيم في أمره وتدبيره.

ماذا في قلوبنا غير حب الله؟ ماذا في قلوبنا من حب سيدنا محمد ﷺ؟ ماذا في قلوبنا من كراهية ما كره سيدنا محمد ﷺ؟ ماذا في قلوبنا من الولاء لله؟ جاء في سورة الفتح قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وجاء في سورة النحل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

أي: ولقد بعثنا في كل أمة سبقَتْ رسولاً آمرًا لهم بعبادة الله وطاعته وحده، وتَرْكِ عبادة غيره من الشياطين والأوثان والأموات وغير ذلك مما يتخذ من دون الله وليًّا، فكان منهم مَن هدى الله، فاتبع المرسلين، ومنهم المعاند الذي اتبع سبيل الغيِّ، فوجبت عليه الضلالة، فلم يوفقه الله، فامشوا في الأرض، وأبصروا بأعينكم كيف كان مآل هؤلاء المكذبين؟ وماذا حلَّ بهم مِن دمار؛ لتعتبروا؟ الأنبياء ماذا يفعلون؟ يُذكِّرون ـ بضم الياء وكسر الكاف ـ الناس بالله.

فمَن أحب رسول الله أحب كلام رسول الله ﷺ، فتتودد إلى الله بحب كلام الحبيب ﷺ. أي: هناك طائفة تقبل، وطائفة لا تقبل الاستجابة إلى الإيمان والتلقيح الإيماني، قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت

منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].

فلا بد وأن نكون مع الأرض الأولى ومع الصنف الأول، الأرض النقية التي تقبل الماء، وتحافظ على هذا الماء، ثم تخرج هذا الماء فتنبت العشب والكلأ الكثير، كما أخبرنا الحبيب ﷺ، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

أي: إن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وصرفوا العبادة لغيره عندما يعاينون أهوال النار بأنفسهم، يَمْقُتون أنفسهم أشد المقت، وعند ذلك يناديهم خزنة جهنم: لَمقت الله لكم في الدنيا حين طلب منكم الإيمان به واتباع رسله، فأبيتم أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن، بعد أن أدركتم أنكم تستحقون سخط الله وعذابه.. الله يقول: آمنوا. تقولون: كفرنا، الله يقول: قولوا: سمعنا.. وتقولون: عصينا.

وقوله: ﴿تُدْعَوْنَ﴾، أي: هناك رسل وأنبياء، وهناك استمرار، وهناك علماء ومصلحون، ولكن الآذان صم والقلوب غلقت، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

أي: قال الكافرون: ربنا أمتَّنا مرتين، حين كنا في بطون أمهاتنا نُطَفًا قبل نفخ الروح، وحين انقضى أجلُنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين: في دار الدنيا، يوم وُلِدْنا، ويوم بُعِثنا من قبورنا، فنحن الآن نُقِرُّ بأخطائنا السابقة، فهل لنا من طريق نخرج به من النار، وتعيدنا به إلى الدنيا؛ لنعمل بطاعتك؟ ولكن هيهات أن ينفعهم هذا الاعتراف.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي موسى ﷺ، وأحمد في المسند رقم ١٨٧٥٢.

لحظات الاعتراف جميلة جدًّا، لحظات الاعتراف هي لحظات الغسيل، وهي لحظات الرحمات كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

أي: وآخرون من أهل (المدينة) وممن حولها اعترفوا بذنوبهم، وندموا عليها، وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح وهو التوبة والندم والاعتراف بالذنب، وغير ذلك من الأعمال الصالحة بآخر سيِّئ؛ وهو التخلف عن رسول الله ﷺ وغيره من الأعمال السيئة، عسى الله أن يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم، إن الله غفور لعباده رحيم بهم.

فالذين ليس لهم تجارة رابحة مع الله انظروا كيف حالهم مع الله تعالى؟ فتلقيح الإيمان يحتاج إلى متابعة، وإلى من يذكرك بحبِّ الله، فلا بد من خلق الجو الإيماني والبيئة الإيمانية، فكان رسول الله ﷺ يجلس ويفعل هذا، فكان الحبيب ﷺ يجلس مع أصحابه رضي الله عنهم ويقول: «من أصبح منكم اليوم صائمًا»[1]. في غير رمضان، إنه ينعِش الإيمان في قلوبهم، وينعش محبة الله تعالى في قلوبهم، وينعش محبة الوطن، والعطاء للوطن في قلوبهم، وينعش محبة الأرض التي كان ينظر إليها رسول الله وهو خارج من مكة، ويقول: «إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ـ أي: عنوة وقهرًا ـ ما خرجت»[2]. فخير الناس أنفعهم للناس، وأنفعهم لأحبابه ولوطنه، فالذي يكون له ذكر طيب بعد وفاته فهو الذي ينفع الناس عندما يكون حيًّا.

فكان الحبيب ﷺ يجلس مع أصحابه ويقول: «من أصبح منكم اليوم صائمًا». فقال الصديق: أنا. «من عاد مريضًا؟» فقال الصديق: أنا. «من تبع اليوم جنازة؟» قال الصديق: أنا. «من أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال الصديق: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[3].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٤٤٠٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما، رقم: ١٧٨٧.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٤٤٠٠.

إذن حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ يستلزم من المسلم أن يعمل بطاعة الله، واتباع سنة رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وذلك يقودنا إلى التشبه بأصحابه رضي الله عنهم في العلم والعمل.

ننتقل الآن إلى موضوع حب الرسول ﷺ، فإن المسلم إذا أحب النبيَّ ﷺ حق الحب فإنه يكون سببًا للاقتداء به في عبادته وأخلاقه وسيرته ﷺ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ بِكَ إِلَيْكَ، وَنُقْسِمُ بِكَ عَلَيْكَ، فَكَمَا كُنْتَ دَلِيلَنَا عَلَيْكَ، فَكُنِ اللَّهُمَّ شَفِيعَنَا لَدَيْكَ، فَإِنَّ حَسَنَاتِنَا مِنْكَ، وَإِنَّ سَيِّئَاتِنَا مِنَّا، فَجُدِ اللَّهُمَّ بِمَا هُوَ مِنْكَ عَلَى مَا هُوَ مِنَّا، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا، وَرِزْقًا وَاسِعًا، وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، يَا رَبَّ نَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنَا إِلَيْكَ غَيْرَ فَاتِنِينَ وَلَا مَفْتُونِينَ.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تلقيح الإيمان (٤)

(بحب النبي ﷺ)

اللهم أنت ربنا فنعم الرب أنت، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، ترزق من تشاء، وتعطى من تشاء، وأنت على كل شيء قدير، اللهم إنا نسألك بقدرتك على كل شيء أن تمنحنا القدرة على التحمل لمصاعب الحياة، ونسألك بعزتك فوق كل شيء أن ترزقنا عز الطاعة، ونور اليقين، ونور البصر والبصيرة.

ونستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أذنبناه في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ وخلاء، وسر وعلانية، يا حليم يا كريم، اللهم أصلح أمة محمد ﷺ، اللهم ارحم أمة محمد ﷺ، اللهم سلم أمة محمد ﷺ، اللهم اغفر لأمة محمد ﷺ، واغفر لنا ولمن آمن بك، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. وقال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

أي: واصبر أيها الرسول لحكم ربك وأمره فيما حَمَّلك من الرسالة، وعلى ما يلحقك من أذى قومك، فإنك بمرأى منا وحفظ واعتناء، وسبِّح بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة.

نحن عشنا معنى تلقيح الإيمان، والإيمان يزيد ويحتاج إلى مدعمات كي يزداد.

ورسول الله ﷺ له مقام رفيع عند الله تعالى، وله خطاب في القرآن الكريم بشكل وكيفية معينة سنلاحظها أثناء الكلام عن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

مؤكد أن الناس تفهم أنه ليس معنى أن الوحي يتنزل على سيدنا محمد ﷺ وهو جالس والوحي يتنزل عليه بالنور بأنه لا نصيب له في هذا النور، بالعكس انظروا إلى آيات القرآن الكريم وهي توضح لنا النور الذي هو على نور، نور على نور، الذي نعيشه مع سيدنا محمد ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

أي: يا أيها الذين آمنوا، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه وآمنوا برسوله، يؤتكم ضعفين من رحمته، ويجعل لكم نورًا تهتدون به، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور لعباده رحيم بهم.

من أين أتى هذا النور؟ بالإيمان بسيدنا محمد ﷺ، فمجرد التصديق به نور في حد ذاته، فما نصيبنا نحن من هذا العطاء الخاص بسيدنا محمد ﷺ؟ الله تعالى يخصه بتعبيرات معينة ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]. أي: إنا فتحنا لك أيها الرسول فتحًا مبينًا، يظهر الله فيه دينك، وينصرك على عدوك، وهو هدنة الحديبية التي آمن الناس بسببها بعضهم بعضًا، فاتسعت دائرة الدعوة لدين الله، وتمكن من يريد الوقوف على حقيقة الإسلام مِن معرفته، فدخل الناس تلك المدة في دين الله أفواجًا؛ ولذلك سمَّاه الله فتحًا مبينًا، أي: ظاهرًا جليًّا، وذلك فتح خاص من الله ﷻ لسيدنا محمد ﷺ.

والأمة كلها لها نصيب من هذا الفتح ببركة اسم الله تعالى الفتاح، واسمه تعالى الوهاب، والمعطي، فمن داوم عليها بعد صلاة الفجر أعطاه الله تعالى فتحًا خاصًّا ونورًا خاصًّا من نور قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١].

فكيف نكون في معية الإيمان، ومعية سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة؟ قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]. أي: بل الله فاعبد أيها النبي ﷺ مخلصًا له العبادة وحده لا شريك له، وكن من الشاكرين لله نعمه.

وكذلك تلاحظ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. أي: ألم نوسع أيها النبي لك صدرك لشرائع الدين، والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق؟! فإن منة الله سبحانه وتعالى بالفتح والشرح، إنا فتحنا لك، فصدره ﷺ له إعداد خاص، وترتيب خاص، وشرح خاص من الله عزوجل، هذا الشرح لصدر سيدنا محمد ﷺ ولأمة سيدنا محمد ﷺ، ولا نستطيع أن نعيش شرح الصدر أو نعيش الإيمان إلا إذا كنا في حالة محبة لله عزوجل ومحبة لسيدنا محمد ﷺ.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ. فقال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت[1].

وقال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. أي: ولسوف يعطيك ربك أيها النبي مِن أنواع الإنعام في الآخرة، فترضى بذلك.. كيف ترضى عن الله؟ وكيف يرضى الله تعالى عنك؟ إن هذا الباب الذي قال عنه الحبيب ﷺ: **«اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار»**[2].

فموجبات الرحمة وعزائم المغفرة تتجمع كلها في محبة الله ومحبة سيدنا محمد ﷺ، فحب الله تعالى هو الذي يفتح لنا أبواب الطاعات، وحب سيدنا محمد ﷺ هو الذي يفتح لنا أبواب الرحمات.

من أين تأتي الرحمة والمغفرة؟ تأتي الرحمة والمغفرة من شرح الصدر والفتح مع العطاء من رب العالمين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم: ٣٦٨٨، ومسلم رقم: ٦٨٧٨، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٤٧٩، وابن ماجه رقم: ١٣٨٤، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

أي: يا أيها الذين آمنوا، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه وآمنوا برسوله، يؤتكم ضعفين من رحمته، ويجعل لكم نورًا تهتدون به، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور لعباده رحيم بهم.. فقد جاءت المغفرة من باب سيدنا محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. أي: قل يا أيها الرسول: إن كنتم تحبون الله حقًا فاتبعوني وآمنوا بي ظاهرًا وباطنًا، يحببكم الله، ويمحُ ذنوبكم، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم.

وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله تعالى وليس متبعًا لنبيه محمد ﷺ حق الاتباع، مطيعًا له في أمره ونهيه، فإنه كاذب في دعواه حتى يتابع الرسول ﷺ حق الاتباع.

إن محبة الحبيب ﷺ من أهم أبواب المغفرة التي يغفر الله بها للعباد، فلا تستهينوا بمحبة سيدنا محمد ﷺ، ولا بشرف الصلاة والسلام عليه ﷺ فهو القائل: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الأَوْفَى إِذَا صَلَّى عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَذُرِّيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(١).

اللهم صل على سيدنا محمد وأزواجه وأمهات المؤمنين وذريته وآل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد.

فصيغة آل بيت الحبيب والصيغة الإبراهيمية علمها لنا رسول الله ﷺ، فجميع العطاء الخاص من الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ إنما هو عطاء من الله لسيدنا محمد، وأمة سيدنا محمد القائل: «طوبى لمن آمن بي ورآني، مرة، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني، سبع مرات»(٢). فالذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به لهم طوبى مرة واحدة، وطوبى وطوبى وطوبى ـ أكثر من مرة ـ لمن آمن به ولم يره..

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم ٨٣٢.
(٢) أخرجه أحمد في المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وانظر إلى جميل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

أي: اليوم أكملت لكم دينكم دين الإسلام بتحقيق النصر وإتمام الشريعة، وأتممت عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ورضيت لكم الإسلام دينًا فالزموه، ولا تفارقوه، فمن اضطرَّ في مجاعة إلى أكل الميتة، وكان غير مائل عمدًا لإثم، فله تناوله، فإن الله غفور له رحيم به.

فالنعمة تمت لسيدنا محمد ﷺ وبسيدنا محمد ﷺ، وتمت على أمة سيدنا محمد ﷺ، وهذا هو الربط بين سورة الفتح والمائدة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ من ربي إنما إلهكم إله واحد، فمَن كان يخاف عذاب ربه ويرجو ثوابه يوم لقائه، فليعمل عملاً صالحًا لربه موافقًا لشرعه، ولا يشرك في العبادة معه أحدًا غيره.

فالله سبحانه وتعالى ربط بين لقائه وسيدنا محمد ﷺ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، وربط بين بشرية سيدنا محمد ﷺ والوحي ولقاء الله، فلكي نسعد بلقاء الله تعالى كما ينبغي، وكما يريد أن يلقى الله تعالى بقلب طاهر، ونور على نور، فإن السبيل إلى هذا هو سيدنا محمد ﷺ.

خواتيم سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

أي: ولقد نعلم بانقباض صدرك أيها الرسول بسبب ما يقوله المشركون فيك وفي دعوتك، فافزع إلى ربك عند ضيق صدرك، وسَبِّح بحمده شاكرًا له مثنيًا عليه،

وكن من المصلِّين لله العابدين له، فإن ذلك يكفيك ما أهمَّك، واستمِرَّ في عبادة ربك مدة حياتك حتى يأتيك اليقين، وهو الموت، وامتثل رسول الله ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في عبادة الله، حتى أتاه اليقين من ربه.

نتحدث الآن عن خواتيم السور، ولماذا الخواتيم بالأخص التي فيها سيدنا محمد ﷺ؟ لأنها سهلة على الناس، وكثيرًا ما يحبونها ويصلي بها المشايخ والأئمة في الصلوات، فالنور كله في خواتيم السورة.

والخطاب في الآيات السابقة ليس لسيدنا محمد ﷺ فقط، ولكن للأمة كلها، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

أي: أفمَن وسَّع الله صدره، فسعد بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على بصيرة من أمره وهدى من ربه، كمن ليس كذلك؟ لا يستوون.. فويل وهلاك للذين قَسَتْ قلوبهم، وأعرضت عن ذكر الله، أولئك في ضلال بيِّن عن الحق.

فكل نعمة أعطاها الله لسيدنا محمد ﷺ ليست له وحده، ولكن كل الأمة موصولة به ﷺ، ولها من كل الآيات والأسرار التي أعطاها لرسولنا ﷺ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

أي: يا أيها الرسول بلِّغ وحي الله الذي أنزِل إليك من ربك، وإن قصَّرت في البلاغ فكَتَمْتَ منه شيئًا، فإنك لم تُبَلِّغ رسالة ربِّك، وقد بلَّغ ﷺ رسالة ربه كاملة، فمَن زعم أنه كتم شيئًا مما أنزِل عليه فقد أعظم على الله ورسوله الفرْيَةَ.. والله تعالى حافظك وناصرك على أعدائك، فليس عليك إلا البلاغ.. إن الله لا يوفق للرشد مَن حاد عن سبيل الحق، وجحد ما جئت به من عند الله.

فكل إنسان صاحب رسالة إذا كتم هذه الرسالة لن يستطيع أن يبلغ الرسالة، فكل صاحب رسالة لا بد أن يتأسى برسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة، كما في قوله

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]. فالنور الموجود في هذه الآية هو أن صدره مفتوح إلى الملأ الأعلى، وفي حالة ملاحظة ومراقبة خاصتين من الله سبحانه وتعالى.

فعندما يعاني المسلم من مشكلة فعليه أن يسبح، ومن يعاني من الهمِّ فعليه أن يسبح، ومن عليه دَيْن فعليه أن يسبح... ويرى بعض العلماء أنه «يسبح» بمعنى «يصلي»؛ ولذلك في خواتيم سورة الطور كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨].

وتبدأ بعدها سورة النجم لكي تستمر في أعيننا، وتستمر أنت في حالة ملاحظة ومتابعة وتكريم من الله تعالى، كيف أكون متابعًا لهذا النور كله؟ وكيف نستمر على هذا النور كله؟ كما في قوله تعالى في آخر سورة الطور: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩].

أي: وحين تقوم من نومك، ومن الليل فسبِّح بحمد ربك وعظِّمه، وصلِّ له، وافعل ذلك عند صلاة الصبح وقت إدبار النجوم... وفي هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته سبحانه وتعالى كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، واللفظ ورد هنا بصيغة الجمع للتعظيم.

والمقصود في الآية السابقة صلاة الفجر التي قال عنها رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]. والقرطبي والطبري والمفسرين الكبار رحمهم الله يرون أن التسبيح معظمه في القرآن الكريم يأتي بمعنى الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

(١) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، رقم ١١٩٣.

أي: هذا النور المضيء في مساجد أَمَرَ الله أن يُرْفع شأنها وبناؤها، ويُذْكر فيها اسمه بتلاوة كتابه والتسبيح والتهليل، وغير ذلك من أنواع الذِّكْر، يُصلِّي فيها لله في الصباح والمساء، رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذِكْرِ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار تنظر إلى أي مصير تكون فيها، أي: يُصلَّى له فيها بالغدو والآصال.

وكما ذكر رب العالمين في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨]. فسبحان الله بمعنى: صلوا، حين تمسون بمعنى: المغرب والعشاء، وحين تصبحون أي: صلاة الفجر.

أي: فيا أيها المؤمنون سبِّحوا الله ونزِّهوه عن الشريك والصاحبة والولد، وَصِفوه بصفات الكمال بألسنتكم، وحقِّقوا ذلك بجوارحكم كلها حين تمسون، وحين تصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة، وله سبحانه الحمد والثناء في السماوات والأرض وفي الليل والنهار.

وله الحمد في السماوات والأرض وعشية ـ أي: العصر ـ، وحين تظهرون ـ أي: صلاة الظهر ـ، أي أن الله تعالى جمع الصلوات الخمس في آية واحدة، وهي آية سورة الروم، فمعنى سبحان الله أي: صلوا.

وقد عشنا قبل ذلك مع خواتيم سورة الكهف ثم الطور ثم الحجر، وهناك ربط بين سورة الحجر وسورة النحل، سورة الحجر تختتم بالكلام عن سيدنا محمد ﷺ، وسورة النحل التي بعدها تختتم بالكلام عن سيدنا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧ - ١٢٨].

أي: واصبر أيها الرسول على ما أصابك مِن أذى في الله حتى يأتيك الفرج، وما صبرك إلا بالله، فهو الذي يعينك عليه ويثبتك، ولا تحزن على مَن خالفك ولم يستجب لدعوتك، ولا تغتم مِن مكرهم وكيدهم؛ فإن ذلك عائد عليهم بالشر والوبال.

إن الله سبحانه وتعالى مع الذين اتقوه بامتثال ما أمر، واجتناب ما نهى بالنصر والتأييد، ومع الذين يحسنون أداء فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته، بعونه وتوفيقه ونصره.

ونلاحظ أن كل سورة تختم بسيدنا محمد ﷺ تبدأ السورة التي بعدها بسيدنا محمد ﷺ، وهكذا بدأت سورة الإسراء بعد سورة النحل ليسري على قلب الحبيب ﷺ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

أي: يمجِّد الله نفسه ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، لا إله غيره، ولا رب سواه، فهو الذي أسرى بعبده محمد ﷺ زمنًا من الليل بجسده وروحه، يقظة لا منامًا، من المسجد الحرام بـ «مكة» إلى المسجد الأقصى بـ «بيت المقدس» الذي بارك الله حوله في الزروع والثمار وغير ذلك، وجعله محلًّا لكثير من الأنبياء؛ ليشاهد عجائب قدرة الله وأدلة وحدانيته، إن الله سبحانه وتعالى هو السميع لجميع الأصوات، البصير بكل مُبْصَر، فيعطي كُلاًّ ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

كما جاءت أيضًا خواتيم سورة الإسراء مع بداية سورة الكهف مرتبطة بالحبيب ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

أي: وقل أيها الرسول: الحمد لله الذي له الكمال والثناء، الذي تنزَّه عن الولد والشريك في ألوهيته، ولا يكون له سبحانه وليٌّ مِن خلقه فهو الغني القوي، وهم الفقراء المحتاجون إليه، وعظِّمه تعظيمًا تامًّا بالثناء عليه وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

ثم رد رب العالمين في بداية سورة الكهف بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١]. أي: الثناء على الله بصفاته التي كلُّها أوصاف كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، الذي تفضَّل فأنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ القرآن، ولم يجعل فيه شيئًا من الميل عن الحق..

فختمت سورة الإسراء بسيدنا محمد ﷺ، وبدأت سورة الكهف بالحديث عن سيدنا محمد ﷺ، كذلك خُتِمت سورة الكهف بسيدنا محمد ﷺ، عندئذ نلاحظ مدى أن الله سبحانه وتعالى يعتني بحبيبه ﷺ، ويعتني بتربيته ﷺ.

وهذا أيضًا موجود في خواتيم سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩].

أي: لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول من قومكم، يشق عليه ما تلقون من المكروه والعنت، حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم، وهو بالمؤمنين كثير الرأفة والرحمة.. فإن أعرض المشركون والمنافقون عن الإيمان بك أيها الرسول فقل لهم: حسبي الله، يكفيني جميع ما أهمَّني، لا معبود بحق إلا هو، عليه اعتمدت، وإليه فَوَّضْتُ جميع أموري؛ فإنه ناصري ومعيني، وهو رب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات.

فالسورة تختم بسيدنا محمد ﷺ، أي: فقل: إن الله سبحانه وتعالى يعلمه كيف يتكلم، ويربيه كيف يرد.

و«حسبي الله» لا يقولها رسول الله ﷺ فقط، ولكن يقولها الناس جميعًا، ففي مواقف الشدة والصعوبة نتعلم أن الدنيا إذا أغلقت أبوابها فإن رحمة الله أوسع، كما في الحديث: «عليك باليأس بما في أيدي الناس فهذا هو الغنى، وإياك والطمع؛ فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاة المودع، وإياك وما يعتذر عنه»[1]. فهذه وصايا رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ٣١٦.

وفي الحديث الآخر قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق»[1]، هذا كلام شريف لا تسمعه إلا من فَم رسول الله ﷺ.. بالإضافة إلى ما سبق فيما يخص الحبيب ﷺ في سورتي مريم والدخان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

أي: فإنما يسَّرنا هذا القرآن بلسانك العربي أيها الرسول؛ لتبشر به المتقين من أتباعك، وتخوِّف به المكذبين شديدي الخصومة بالباطل.

وفي قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]. أي: فإنما سهَّلنا لفظ القرآن ومعناه بلغتك أيها الرسول؛ لعلهم يتعظون وينزجرون.. بلسانك أنت؛ كأن لسانك أعد بنبضات خاصة وزكية وعلوية سماوية، لا يستقبلها إلا لسان وقلب الحبيب ﷺ.

وكما في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩].

هذه الآيات لها خاصة بسيدنا محمد ﷺ، وسورة التوبة تأتي بعدها سورة يونس، وتختم سورة يونس بالحديث عن سيدنا محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

أي: واتبع أيها الرسول وحي الله الذي يوحيه إليك فاعمل به، واصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى من آذاك في تبليغ رسالته، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره، وهو ﷻ خير الحاكمين؛ فإن حكمه مشتمل على العدل التام..

وكما جاء أيضًا في سورتي هود ويوسف، فقد ورد في آخرها الحديث عن سيدنا محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم ٣٥١٥.

أي: ونقصُّ عليك أيها النبيُّ من أخبار الرسل الذين كانوا قبلك، كل ما تحتاج إليه مما يقوِّي قلبك للقيام بأعباء الرسالة، وقد جاءك في هذه السورة وما اشتملت عليه من أخبار بيان الحق الذي أنت عليه، وجاءك فيها موعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون بالله ورسله.

وفي خواتيم سورة يوسف ورد قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. أي: قل لهم أيها الرسول: هذه طريقتي، أدعو إلى عبادة الله وحده، على حجة من الله ويقين، أنا ومن اقتدى بي، وأنزِّه الله سبحانه وتعالى عن الشركاء، ولستُ من المشركين مع الله غيره.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إمامًا، اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك، اللهم اجعلنا لك ذكارين لك شكارين لك أوابين.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ لَهُمْ صِحَّةً فِي إِيمَانٍ، وَإِيمَانًا فِي حُسْنِ خُلُقٍ وَنَجَاحًا يَتْبَعُهُ فَلَاحٌ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضُدَنَا، وَأَقِمْ بِهِمْ وُدَّنَا، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدَنَا، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرَنَا، وَأَحْيِ بِهِمْ ذِكْرَنَا، وَاكْفِنَا بِهِمْ فِي غَيْبَتِنَا، وَأَعِنَّا بِهِمْ عَلَى حَاجَتِنَا، وَاجْعَلْهُمْ لَنَا مُحِبِّينَ مُطِيعِينَ، غَيْرَ عَاصِينَ، وَلَا عَاقِّينَ، وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا خَاطِئِينَ، وَأَعِنَّا عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ، وَبِرِّهِمْ، وَاجْعَلْهُمْ لَنَا عَوْنًا، وَأَعِذْنَا وَذُرِّيَّتَنَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تلقيح الإيمان (٥)

(بملائكة الرحمن)

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

أي: والذين يحملون عرش الرحمن من الملائكة ومَن حول العرش ممن يحف به منهم، ينزِّهون الله عن كل نقص، ويحمَدونه بما هو أهل له، ويؤمنون به حق الإيمان، ويطلبون منه أن يعفو عن المؤمنين، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من الشرك والمعاصي، وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه وهو الإسلام، وجَنِّبهم عذاب النار وأهوالها.

الذي ينظر في القرآن الكريم يجد أن كلمة الملائكة جاءت في مواضع محددة، جاءت في ثمانية وستين موضعًا، وكلمة الشيطان جاءت في ثمانية وستين موضعًا أيضًا، معنى هذا أن الشياطين تحاول وتبذل جهدًا كبيرًا في إفساد الناس وإفساد بيوتنا، وأن الملائكة يبذلون جهدًا نورانيًّا كبيرًا في تأليف القلوب وشرح الصدور، والشياطين تحاول أن تصد الناس عن ذكر الله فتأتي الملائكة لتثبيت الإيمان في قلوب الناس، وتأتي الشياطين تحاول أن تفسد قلوب الناس بعضهم على بعض، والملائكة تسعى أن تجعل قلوب الناس منشرحة، فهناك عون وتأييد وثبات يأتي من الله إلى عباده، كما في الحديث: «**اللهم أعنِّي على ذِكرِك وشكرك وحسنِ عبادتك**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٧٩٦٩، وأبو داود رقم ١٥٢٤، عن معاذ رضي الله عنه.

فالإيمان يزيد، والمغفرة تأتي من خلال هذه الملائكة الذين خلقهم الله تعالى من نور؛ لأنهم من نور، فإن النور يشع في المكان الذي يحضرون فيه.

إن رسول الله ﷺ علمنا أن الملائكة يطوفون في الطرقات يلتمسون مجالس العلم، وينادون بعضهم على بعض، الملائكة في مصر ينادون على الملائكة في سوريا وعلى الملائكة في السعودية... وهكذا؛ فإن الكون كله يشرق بذكر الله تعالى، «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه فيما بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة»[1]. أي: أن الإنسان يشعر بالهدوء والراحة والسكينة لمجرد أنه جلس لذكر الله ﷻ.

ما اجتمع بمعنى: اجتماع في الخير وذكر الله ﷻ ودرس علم، فالإنسان أحيانًا يكون متعبًا أو عنده صداع، فإذا ما قرأ في المصحف فإن هذا كله يذهب عنه، فإذا ما صلى، أو تقدم إلى الصلاة فإنه يشعر براحة عجيبة، فالملائكة تساعده وتثبته حتى يقوى على طاعة الله ﷻ، أي أن الملائكة تحفنا في مجالسنا.

وفي ليلة القدر نحس ونشعر بآثار الملائكة في المساجد وفي البيوت القائم أهلها؛ لأن الملائكة تنزل ومعها سيدنا جبريل عليه السلام في ليلة القدر، فالذين يعيشون الإيمان في هذه الليلة يشعرون أن الدنيا صارت سلامًا وأمانًا؛ لأن الملائكة هي السلام؛ ولأن الملائكة يتواجدون في هذه الليلة ليثبتوا الإيمان في قلوب الناس.

ونحن نعلم أن الملائكة يحضرون مجالس العلم، وصلاة الجمعة؛ لكي يسجلوا أسماء الحاضرين، وهناك أيضًا حقيقة عظيمة ومهمة وهي أن الملائكة يحضرون المساجد ومجالس العلم؛ لكي يثبتوا العلم الذي نقوله في قلوب العباد، أي أن الملائكة يساعدون الناس على فهم كتاب الله ﷻ، ويوقظون الناس لصلاة الفجر، وأن الشياطين يؤدون أدوارًا معاكسة لما تؤديه الملائكة؛ لكن الملائكة من نور، ولأنها من نور فإن اسم الله تعالى هو النور، فإن الملائكة مستمدة من نور الملأ الأعلى، وإن

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، رقم ١٢٤٣.

الشياطين من نار، والنار يغلب عليها الهوج، ويغلب عليها الشيطنة والطيش، أي أنها سريعًا ما تشتعل وتهلك وتفسد، ولكن الملائكة وجودها في بيوتنا يؤدي إلى السكينة، فما من بيت فيه ذكر لله ﷻ إلا وفيه بركة، وهي بركة الملائكة.

أحد الناس عندما مات الحبيب ﷺ فقال: إنه كان بشرًا ومات، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]. أي: إنك أيها الرسول ميت وإنهم ميتون. لكن الأنبياء لهم موت خاص، فإذا كان الشهيد كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

أي: ولا تظنَّنَّ أيها النبي أن الذين قتلوا في سبيل الله أموات لا يُحِسُّون شيئًا، بل هم أحياء حياة برزخية في جوار ربهم الذي جاهدوا من أجله، وماتوا في سبيله، يجري عليهم رزقهم في الجنة، ويُنعَّمون.

فالشهيد حي عند الله سبحانه وتعالى ويُرزق، فما بالنا بالنبي ﷺ! وما معنى أنه سبحانه قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]؟ ففهم بعض الناس أنه مات وانتهت القصة، لكن موته ﷺ هو الموت الجسدي، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

أي: يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهدًا على أمتك بإبلاغهم الرسالة، ومبشرًا المؤمنين منهم بالرحمة والجنة، ونذيرًا للعصاة والمكذبين من النار، وداعيًا إلى توحيد الله وعبادته وحده، وسراجًا منيرًا لمن استنار بك، فأمْرك ظاهر فيما جئتَ به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.

فهل انطفأ سراج النبي ﷺ؟ ونحن في الأذان نقول: أشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ. فنحن نذكره في كل صلاة بالسلام عليه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فهذه معانٍ علمنا إياها رسول الله ﷺ، ونحن لا نشك لحظة في صدق سيدنا محمد ﷺ.

هل تذكر أحدكم ذات مرة وهو يزور مريضًا أن الله عنده؟[1] أي: يجد رحمة الله عند هذا المريض، ووجد الملائكة عند المريض! وأنه يذهب معه، ويستقبله سبعون ألف ملك، ماذا يفعلون؟ إنهم يستغفرون لك ويدعون لهذا المريض ويثبتونك، فعندما تقابل شخصًا في الشارع يقول لك: أين أنت ذاهب؟ تقول له: ذاهب لفلان؛ لأنه مريض، يقول لك: وأنت كنت مريضًا لم يسأل عنك أحد، فيرجع، لماذا؟ لأن الهمة الإيمانية عنده ضعيفة، وإيمانه ناقص، أما الإنسان إذا خرج لله، فإن الله تعالى يؤيده ويقويه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

أي: اذكروا نعمة الله عليكم يوم بدر، إذ تطلبون النصر على عدوكم، فاستجاب الله لدعائكم قائلاً: إني ممدُّكم بألف من الملائكة من السماء، يتبع بعضهم بعضًا.

فالمدد والعون الذي يأتي من الله تعالى يأتي في صورة ملائكية، فكَمْ من أناس كانوا في غفلة، وفي شقاق، وفي نفاق، وفي ظلام مبين فشعروا بتحولات في حياتهم، وشعروا بالنور يسري في صدورهم، قال تعالى في سورة الطور: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٥ - ٧]. والسقف المرفوع هو السماء الدنيا، والبحر المسجور أي: المملوء بالمياه.

فنحن نتحدث عن تلقيح الإيمان بملائكة الرحمن.. فعندما تخالط بشاشة الإيمان قلب الإنسان، فإن الملائكة تساعده على تثبيت الإيمان والنور في قلبه، فإن الملائكة يطوفون حولكم، ويأخذون كلامًا منكم ويصعدون إلى الله تعالى به، وأحلى كلام تحب الملائكة أن تستمع إليه، والذي يحب الله تعالى أن يستمع إليه هو: **«سبحان الله، والحمد لله، الله أكبر، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»**. فالملائكة ترتفع بالباقيات الصالحات إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم، باب فضل عيادة المريض، رقم ٦٧٢١، بلفظ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»... الحديث.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تصلي على أحدكم»[1]. ومعنى ذلك أن الملائكة مشغولة بنا، ولماذا هم مشغولون بنا؟ لأن الله تعالى كلفهم بهذا، فالله تعالى يولي سيدنا محمدًا ﷺ عناية خاصة، والملائكة معنيون عناية خاصة بسيدنا محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أي: أن الله تعالى يثني على النبي ﷺ عند الملائكة المقربين، وملائكته يثنون على النبي ويدعون له، يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، صلُّوا على رسول الله، وسلِّموا تسليمًا، تحية وتعظيمًا له.

وصفة الصلاة على النبي ﷺ ثبتت في السنة على أنواع، منها: «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[2].

والصلاة من الملائكة استغفار وبركة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. أي: إن الله تعالى يصلي عليه فصلوا أنتم؛ لأن صلاتكم عليه تستوجب أن الملائكة يصلون عليكم أيضًا، فلا تُرْحَموا إلا بالصلاة عليه ﷺ.

وفي الحديث الشريف: «إن الملائكة تستغفر لأحدكم ما دام في مصلاه لايؤذي أحدًا فتقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»[3]. وفي الحديث الآخر: «الله تعالى علمنا أن نصطف في صلاتنا كما تصطف الملائكة في صلاتها»[4]. أي: يصلون ويسبحون، لكن الجمال ليس في هذا فقط كما ذكرنا من قبل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٤٤٥ ومسلم رقم ١٥٤٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٤٧٩٨، ومسلم رقم ٩٣٤، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٤٤٥ ومسلم رقم ١٥٤٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي، باب حث الإمام على رص الصفوف والمقاربة بينها، رقم ٨١٦، بلفظ: ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمون الصف الأول ثم يتراصون في الصف.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

وإذا حدثتكم عن وصف حملة العرش ومن حوله نذهب لسورة الشورى في قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

أي: تكاد السماوات يتشقَّقْنَ، كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الرحمن وجلاله تبارك وتعالى، والملائكة يسبحون بحمد ربهم، وينزهونه عما لا يليق به، ويسألون ربهم المغفرة لذنوب مَن في الأرض مِن أهل الإيمان به، ألا إن الله هو الغفور لذنوب مؤمني عباده، الرحيم بهم.

فالسماوات ليس عندها قدرة على تحمل تسبيح الملائكة؛ لأنها تشققت؛ لأنه «ليس فيها موطن قدم إلا فيها ملك راكع أو قائم أو ساجد»[1]. قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥]. وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر: ٧].

ولا تظن أبدًا أن هناك تعارضًا بين كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة -كما في سورة الشورى- يستغفرون للناس جميعًا، استغفارًا للمؤمن أن الله تعالى يثبته ويؤيده، واستغفارًا للكافر وللمنافق أن يشرح الله صدره للإسلام، والذين يفعلون هذا هم الملائكة جميعًا، فجميع الملائكة الذي خلقهم الله تعالى بأصنافهم، وبأنواعهم، وباختلاف أشكالهم مثنى وثلاث ورباع... يستغفرون لمن في الأرض.

فحملة العرش هم المكلفون بالاستغفار للذين آمنوا؛ إذن فالملائكة مشغولون بكم، ويدعون الله تعالى لكم كي لا تقعوا في المعصية.

---

(١) أخرجه الترمذي، باب ٩ في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، رقم ٢٣١٢، بلفظ: إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله.

قال تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

أي: واصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم، فلا تؤاخذهم بها، ومن تصْرِف عنه السيئات يوم الحساب فقد رحمته، وأنعمت عليه بالنجاة من عذابك، وذلك هو الظَّفر العظيم الذي لا فوز مثله.

فالإنسان إذا وقع في السيئة فقد خرج من رحمة الله ﷻ، وإذا لم يقع في السيئة وأتى بالحسنة فإنه دخل في أبواب الرحمات، وما أوسع رحمتك يا الله؟ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

فيا مَن يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، حالنا لا يخفى عليك، وهذا عملنا ظاهر بين يديك، أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فارتكبنا، ولا يسعنا إلا عفوك فاعف عنا عفوًا كاملاً شاملاً... يا أرحم الراحمين.

اللهم إياك نسأل فلا تخيبنا، وببابك نقف فلا تطردنا، وبنبيك نستشفع فاقبلنا، أمرتنا يا مولانا بالدعاء، فدعوناك، فاستجب لنا كما وعدتنا، واختم بالصالحات أعمالنا، نرجو غناك لفقرنا، ونطمع في تيسير يسرك لعسرنا، وإن حاسبتنا يا الله فلا حجة لنا، وإن عذبتنا فلا طاقة لنا، وإن عفوت عنا فحلمك يسعنا، يا واسع الرحمة، يا جابر القلوب المنكسرة، لا تدع لنا وللمسلمين ذنبًا إلا غفرته، ولا عيبًا إلا سترته، ولا همًّا إلا فرجته، ولا كربًا إلا كشفته.

اللَّهُمَّ إِنَّا عَبِيدُكَ وَبَنُو عَبِيدِكَ وَبَنُو إِمَائِكَ، نَوَاصِينَا بِيَدِكَ، مَاضٍ فِينَا حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِينَا قَضَاؤُكَ، نَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ صُدُورِنَا، وَجَلَاءَ حُزْنِنَا، وَذَهَابَ هَمِّنَا وَغَمِّنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ شَافِعًا لَنَا، وَشَاهِدًا لَنَا لَا عَلَيْنَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ مَكَانَ اللَّوْعَةِ حَلَاوَةً، وَجَزَاءَ الْحُزْنِ سُرُورًا، وَعِنْدَ الْخَوْفِ أَمْنًا، اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِأَوْلِيَائِكَ الْفَرَجَ وَالْعَافِيَةَ، وَاجْعَلْ

ذَلِكَ كَفَّارَةً لِسَيِّئَاتِنَا، اللَّهُمَّ أَبرِدْ شَهَوَاتِ القَلْبِ بِثَلْجِ اليَقِينِ، وَأَطْفِئ جَمْرَ الأَرْوَاحِ بِمَاءِ الإِيمَانِ، يَا رَبِّ أَلْقِ عَلَى العُيُونِ السَّاهِرَةِ نُعَاسَةَ أَمْنٍ مِنْكَ عَلَى نُفُوسِ المُضْطَرِّينَ سَكِينَةً، وَأَنِّنَا فَتْحًا قَرِيبًا، وَاهْدِ الحَيَارَى إِلَى نُورِكَ، وَضُلَّالَ المَنَاهِجِ إِلَى صِرَاطِكَ وَالزَّائِغِينَ عَنِ السَّبِيلِ إِلَى هُدَاكَ.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تلقيح الإيمان (٦)

(في ليلة النصف من شعبان)

الحمد لله رب العالمين، كاشف الهم، ومفرج الغم، ومجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، لا إله إلا أنت...

والصلاة والسلام على البشير النذير السراج المنير الصادق الوعد الأمين سيدنا محمد، صلى الله عليه وعلى الآل وعلى الصحب الغر الميامين.

يُستحبّ قيام ليلة النصف من شعبان وصيامها، ومن صام ليلة النصف من شعبان فليصم يومًا قبله ويومًا بعده، ولا يخصه بصيام. لأجل هذا قبل آذان المغرب بقليل فإن الأعمال تُرفع إلى الله تعالى في هذه الليلة، ففي هذه اللحظة تُرفَع أعمال السنة جميعها إلى الله ﷻ، «والله تعالى يغفر لكل عباده المسلمين الصالحين، إلا المشرك والمشاحن وقاتل النفس والمتخاصمين حتى يصطلحا»[1].

فمن كانت بينه وبين أخيه أو أخته بغضاء، أو غش، أو أي شيء من هذا القبيل فلا بد وأن يسارع في هذه الليلة المباركة بأن يترك المنكرات من الأقوال والأفعال، وأن نصل أرحامنا حتى لو بالاتصال تلفونيًا عبر الهاتف، لعل الله تعالى يعفو، ويجود علينا بالكرم في ليلة الكرم، ولعل الله تعالى ينعم علينا بالعتق من النيران، ويغسل أوزارنا الكثيرة التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٦٣٥٣.

وفي هذه الليلة يا رب مَدَدْنا أيدينا بالذل معترفين إليك، يا خيرَ من مدت إليه يد، فلا تردها يا رب خائبة في هذه الليلة الشريفة فبحر جودك يروي كل مَن يَرِدُ، اللهم أرو قلوبنا حبًّا لك، وخوفًا منك، وسعيًا إلى أبواب رحماتك وفرجك، فإنك يا ربنا لك نزول خاص يليق بك، وبقدرتك وعظمتك في الثلث الأخير من هذه الليلة.

فالملائكة شهدوا لله تعالى بالوحدانية، ويريدون لجميع الناس أن يشهدوا لله تعالى بالوحدانية التي شهدوا بها لله تعالى، ويريدون من الناس أن يشاركوهم الفرحة بالله والتنعم بحب الله ﷻ، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

أي: شهد الله أنه المتفرد بالألوهية، وقَرَنَ شهادته بشهادة الملائكة وأهل العلم، على أجلِّ مشهود عليه، وهو توحيده تعالى وقيامه بالعدل، لا إله إلا هو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيم في أقواله وأفعاله، أي أن أهل العلم أخذوا الشهادة لله تعالى من الملائكة، فاتفق الجميع على أن يشهدوا ألا إله إلا الله.

لأجل هذا فإن الملائكة تذكرنا بالله تعالى، وتنادي علينا إذا كنا نسمعها أو لا نسمعها، ولكنها تنادي علينا، فعن حذيفة بن اليمان أنه أتى النبي ﷺ فقال: بينما أنا أصلي إذ سمعت متكلمًا يقول: اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، بيدك الخير كله، إليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، فأهل أن تحمد، إنك على كل شيء قدير. اللهم اغفر لي جميع ما مضى من ذنبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني عملاً زاكيًا ترضى به عني. فقال النبي ﷺ: ذاك ملك أتاك يعلمك تحميد ربك[1].

فجبريل عليه السلام يتنزل كي يعلم صحابيًّا من أصحاب سيدنا محمد ﷺ، وكيف نثني على الله تبارك وتعالى؟ فما أجمل عطاء الله لأمة سيدنا محمد ﷺ!

«الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه»، قالها صحابي، فقال الحبيب ﷺ: «مَن قالها منكم؟» فلم ينطق أحد مخافة منهم أن يكونوا قد وقعوا في خطأ، فسكت الناس،

(١) أخرجه أحمد في المسند عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، رقم ٢٣٤٠٣.

فقال الحبيب ﷺ: «من قالها؛ فإني رأيت ثلاثة عشر ملكًا من السماء يتسابقون إليها، ويريدون أن يكتبوا هذه الكلمة»[1]. لأجل هذا فالملائكة يحبون لنا أن نكون دائمًا في حالة طاعة وإنابة، فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

أي: أيريد هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب غير دين الله وهو الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، مع أن كلَّ مَن في السماوات والأرض استسلم وانقاد وخضع لله طواعية كالمؤمنين، ورغمًا عنهم عند الشدائد، حين لا ينفعهم ذلك، كما خضع له سائر الكائنات، وإليه يُرجَعون يوم المعاد، فيجازي كلاً بعمله، وهذا تحذير من الله تعالى لخلقه أن يموت إليه أحد منهم على غير ملة الإسلام.

فهذه الآية كيف أسلم الكافر لله؟ فالكافر نفسه أسلم لله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥]. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. أي: الملائكة، وهذا هو الدليل على أن الكافر حتى إذا لم يسجد بقلبه وعقله وبدنه فإن ظله يسجد لله تعالى.

فالكافر يسجد ظله لله جل في عُلاه، فكل شيء يسجد ظله لله سبحانه وتعالى، فالظل في حالة سجود، فما بالك بالملائكة الذين يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون!

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. أي: أعَمِيَ هؤلاء الكفار، فلم ينظروا إلى ما خلق الله من شيء له ظل كالجبال والأشجار، تميل ظلالها تارة يمينًا وتارة شمالاً تبعًا لحركة الشمس نهارًا، والقمر ليلاً كلها خاضعة لعظمة ربها وجلاله، وهي تحت تسخيره وتدبيره وقهره؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٧٩٩، ومسلم رقم ١٣٨٥، ولفظ البخاري: رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ.

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أي: فاستجاب الله دعاءها، وقبل منها نَذْرها أحسن قَبول، وتولَّى ابنتها مريم بالرعاية فأنبتها نباتًا حسنًا، ويسَّر الله لها زكريا عليه السلام كافلاً فأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما دخل عليها هذا المكان وجد عندها رزقًا هنيئًا معدًّا قال: يا مريم من أين لكِ هذا الرزق الطيب؟ قالت: هو رزق من عند الله، إن الله بفضله يرزق مَن يشاء مِن خلقه بغير حساب.

وهذه آيات فيها جمال فوق الوصف، وتبين كيف أن الملائكة تساعدنا على أن نسجد لله ونسلم له، فسيدنا زكريا عليه السلام يصلي في المحراب، والله يبشره بيحيى، وهذه الآيات بها أمران:

الأول: كيف أن الملائكة تثبت الناس في طاعة الله؟

الآخر: كلمة المحراب جاءت في القرآن الكريم في أربعة مواضع، تلاحظ في كل آية أنه تعالى عند مكان المحراب لنا استجابة منه، فعلينا أن نضع أنفسنا في مكان نخلو فيه مع رب العالمين يُسمى المحراب، أي: نحارب به الشيطان. والأربعة مواضع هي:

موضعان في سورة آل عمران؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكما قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

أي: فنادته الملائكة وهو واقف بين يدي الله في مكان صلاته يدعوه: أن الله يخبرك بخبر يسرُّك، وهو أنك سترزق بولد اسمه يحيى، يُصَدِّق بكلمة من الله ـ وهو عيسى

ابن مريم عليهما السلام - ويكون يحيى سيدًا في قومه، له المكانة والمنزلة العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيًّا من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذروته.

وموضع في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]. أي: فخرج زكريا على قومه مِن مصلاه، وهو المكان الذي بُشِّر فيه بالولد، فأشار إليهم: أن سَبِّحوا الله صباحًا ومساءً شكرًا له تعالى.

والموضع الرابع عن سيدنا داود في سورة ص في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ [ص: ٢١]. أي: وهل جاءك أيها الرسول خبر المتخاصِمَين؟

لماذا نذكر كلمة المحراب؟ يفهم بعض الناس أن المحراب هو القِبلة أو المكان الذي يقف به الإمام، نقول: كل مكان نصلي فيه في المسجد أو غيره فهو محراب، حتى لو كانت الصلاة في الشارع أو الحديقة فصار محرابًا؛ لأنك تحارب فيه الشيطان.. ومحراب من الحرب، فإنك إذا ما دخلت في الصلاة دخلت في حرب مع الشيطان؛ لأنه يوسوس لك.

اللهم اجعل سعينا مشكورًا، وعملنا مأجورًا، ودعاءنا مقبولاً، اللهم اختم لنا ولكم بعمل صالح، اللهم لا تجعل أنسنا إلا بك، ولا تجعل خوفنا إلا منك، ولا تجعل اعتمادنا إلا عليك، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ عَافِنَا فِي أَبْدَانِنَا، اللَّهُمَّ عَافِنَا فِي أَسْمَاعِنَا، اللَّهُمَّ عَافِنَا فِي أَبْصَارِنَا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ وَالفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ نَرْجُو، فَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، اللَّهُمَّ الْطُفْ بِنَا فِي قَدَرِكَ، حَتَّى لَا نُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ، وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، يَا رَبِّ اجْعَلْ لَنَا مِنْ كُلِّ ضِيقٍ

مَخْرَجًا، وَاجْعَلْ لَنَا مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَاجْعَلْ لَنَا مَعَ الصَّبْرِ نَصْرًا، الْطُفْ بِنَا فِيمَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، إِنَّكَ يَا مَوْلَانَا عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ، فَرِّجِ الْكُرُوبَ، وَاسْتُرِ الْعُيُوبَ، وَاغْفِرِ الذُّنُوبَ، يَا عَلَّامَ الْغُيُوبِ يَا رَبِّ لَا تَدَعْ فِينَا خَائِفًا إِلَّا أَمَّنْتَهُ، وَلَا مَدِينًا إِلَّا قَضَيْتَ دَيْنَهُ، وَلَا غَائِبًا عَنْ أَهْلِهِ إِلَّا رَدَدْتَهُ سَالِمًا رَاشِدًا.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.